وقضى بينهم نحو عشرين سنة استاذاً للهيجين في جامعة مار برج ومديراً لمعهد الهيجين اي منذ سنة ١٨٩٥ الى قبيل موته . وجوزي على اكتشاف مضاد التكسين سنة ١٨٩٥ بجائزة اكاديمي الطب الفرنسوية والانستيتو الفرانسوي . واغدقت عليه الجمعيات العلمية نياشينها والقابها . وفي سنة ١٩٠١ احاز جائزة نوبل

بغداد امس واليوم

من شاء ان يعرف شعور البغداديين بما اصابهم بالامس وما اتيح لهم الآن فليقرأ الكتاب التالي وقد نشرتهُ احدى الصحف في ٢٥ سبتمبر الماضي فانهُ مطابق لما كتب بهِ الينا غير واحد من فضلاء بغداد وادبائها . قال صاحب الكتاب المشار اليهِ :

هربت من السجن بعد إقامتي فيهِ اياماً كثيرة واختفيت في بعض الدور وقلبي كلهُ اسى لما حل ببغداد وابناء بغداد

غادرتها وتار الجور تضطرم في جوانبها تشبُّها الايدي الاثيمة بقتلهم المجرم والبرىء والصغير والكبير والشريف والوضيع

نفوس تزهق ودور تهدم واموال تنهب واعراض وحرمات تباح قد اناخ الظلم عليها بكلكلهِ وخبطها بأيديهِ وارجلهِ فلا اسواق ولا منتزهات ولا مجالس ولا مجتمعات . زفرات تتردد وحسرات تتصعد على حين اعوز الملجأ وفقد المغيث وعدم الناصر وتفاقم الخطب وعظم الكرب فلا تسمع من الكلام الاَّ الهمس ولا تنظر في الشوارع الا الرجس

أرى النخيل الباسقة والسرو يميلها يميناً وشمالاً فاخالها أرامل اولئك الشهداء قد نثرن شعورهن في مأتم يندبن فيهِ جدودهن العاثرات وحرماتهن المنتهكات او كأنها تماثيل مجد نصبتها الآباء فهي تنوح لما حلَّ بالابناء . كان يشوقني جدًّا زهر الرمان القاني ولكنهُ صار يمثل لعيني دماء اولئك الابرياء الطاهرة فيغلبني البكاء . وكثيراً ما كنت ارتاح الى خرير ماء دجلة فأجلس اليهِ عند المصائب لاخفف بعض ما في النفس من الآلام ولكني في هذه المصيبة صرت اهرب منهُ لاني احسبهُ انين اليتامى تحت جنح الظلام او انهُ يئن جزعاً وحزناً على مجد العرب الدائر وشرفهم المضاع :

ايا شجر الخابور مالك مورقاً كانك لم تجزع على ابن طريف

كيف انام وهل ينام السليم والقوم مسرعون في طلب هذا (الخائن) لم اكن وشرف

عدنان في تلك الساعات المرّة مهتمٌّ بحياتي اكثر مما كنت مهتمًّا بحال اخواني الآخرين. تهمل دموعي فتنصبُّ على خدَيَّ فابكي طويلاً ثم ارجع الى نفسي واطمعها بالفوز واعللها بالنجاح وارسم لها في مخيلتي خطة الفلاح فتطمئن وتبرق لها بارقة الرجاء فتستريح. مسكين «خيري» ضعيف الجسم يتمثلهُ الحزن ويستلمهُ الفكر فينام قليلاً في بعض الاحيان. كنت في غرفة تطلُّ على الطريق بعد ان قضيت شطراً من الليل في معمعان الهموم وتعترك الاحزان انازل الاهوال واباري الكروب العظام

اهتزاز في الغرفة شديد وجلبة وضوضاء ووقع اقدام كثيرة في الطريق. انتبهت مذعوراً وارسلت نوّاً نظري نحو الطريق وبازغم من شدّة الريح وتكاثف الظلام رأيت ثلة من الجند التركي قد اجتازت الدار يتخلف عنها اثنان يتهامسان يقول احدهما لصاحبه: قد أُخليت المدينة وفي هذه الساعة يبرح قائد الشرطة والحرك بغداد. قال لهُ ذلك ومضيا يهرولان خلف رفاقهما

بقيت كالخشبة المسندة لا اعتراني من السرور لا ادري هل ما سمعتهُ في يقظة ام في منام. وضح الامر ولم يبقَ مجال للشك اذ كنت اسمع انفلاق الديناميت في بعض مباني الحكومة وأرى لهيب النار المضطرمة التي شبّها الظالمون في بعض الدور تشفياً وانتقاماً من اصحابها

وما حال الديار يهيج حزني ولكن حال من سكن الديارا

نهضت فصعدت السلّم الى الطابق الاعلى تخيل لي ان السنة النار التي كنت اراها مرتفعة في الفضاء ألسنة اولئك الشهداء المظلومين تدعو على الظالمين بالويل والدمار

علمت ان الامر قد تم فهلت وكبرت ونزلت الى غرفتي انظر الى المارّة وهم لفيف من الصعاليك طفقوا ينهبون الاسواق والمخازن فنبهت الخادم واوعزت اليه ان يسرج لي المصباح لاعلل نفسي بقراءة شيء من الكتب والجرائد ريثما يلوح الفجر. بزق الفجر فنهضت مسرعاً وفتحت الباب وخرجت من الدار ايمم الشارع الكبير فكنت ارى الناس زرافات ووحداناً يمشون في الطرقات تلوح على وجوههم علامات البشر والسرور فتابعت السير حتى وصلت دور الحكومة فوجدت فيها طائفة من الصعاليك يتقاسمون اسرتها وكراسيها وما فيها من المفروشات وغيرها ورأيت كثيراً من البنادق الالمانية والتركية بيد الاطفال والصبيان وصادفت في طريقي كثيراً من ابناء السجون فحيّاتهم بالسلامة ومضيت في شارع الفشلاق العسكري انظر الى الدور المنهدمة والحرائق المضطرمة وما تركهُ الظالمون من آثار الخزي والعار وأنا انشد قول جرير في النرزدق:

وكنت اذا حللت بدار قوم رحلت بغربة وتركت عارا

حتى انتهيت الى الجسر فوجدته قد أحرق وأغرق فعبرت دجلة الى الجانب الغربي في زورق صغير الى داري حيث كانت امي الحزينة واولادي الصغار وزوجتي المسكينة في اشد الانتظار. رأوني ولكن لا استطيع ان اصف ما اعتراهم واعتراني من السرور حينما رأيتهم ورأوني. تجد امي قد تعلقت برقبتي تقبلني والصغار يصيحون ويهتفون بامي وزوجتي لا تستطيع ان تبدي حراكاً. مضت عدة دقائق ونحن في تلك الحال والدموع تفيض على الخدود سروراً وفرحاً. جلست بينهم هنيهة ثم خرجت من الدار الى « المسعودي » لاني سمعت ان احد جنرالات القائد مود صار قريباً من البلد فما كدت اصل رأس البلد من طريق باب الحلة حتى رأيت الجنرال قادماً وخلفه شباب الجند اصحاب السواعد المفتولة والعضلات القوية من ابناء بريطانيا وابناء الهند تلوح عليهم سيماء الشجاعة والبسالة وتبدو على اسرة وجوههم علائم النصر والظفر يقابلون الاهلين بوجوه مستبشرة وثغور باسمة يهشون بوجه هذا ويبشون بوجه ذاك وعليهم ابهة الرزانة والجلالة وشعار البأس والقوة فقابلهم الاهلون بالهتاف الشديد والسرور العظيم كانهم ملائكة انزلوا من السماء لانقاذهم من ايدي القادرين الظالمين

قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا دخلت جيوش الحكومة البريطانية جيوش العدل والانصاف جيوش الحضارة والعمران ووات جيوش الظلم والاستبداد جيوش البسجية والبربرية جيوش الباطل والكذب واستبدل النحس بالسعد والخمول بالمجد والظلام بالنور والحزن بالسرور

وصل الجنرال رأس الجسر الغربي حيث التف حوله لفيف من الاهلين فنادى مناديه من كان خائفاً فهو آمن ومن كان اسيراً فهو حر ومن كان بيده سلاح فليلقه وليذهب كل الى عمله فتفرق الناس وذهبوا الى اعمالهم بهمة ونشاط يرددون الحمد والشكر لباري السموات اذ نجاهم من المذلة ووقاهم شر المحنة وصرف عنهم العذاب ولم تمض ثلاثة ايام حتى لم يبق في بغداد شيء من السلاح الا وسلم الى الحكومة للعسكرية عن طيب نفس وانشراح صدر

وارخص في الارض السلاح بعدله فليس يساوي الصارم العضب درهما

وفي اليوم الثالث دعا الحاكم العسكري موظفي البلدية واقرهم على وظائفهم وامرهم بتنظيف البلد وتطهيره و بالجد والاجتهاد في كل ما يؤول الى راحة الاهلين . ثم دعا

الاشراف والوجهاء اليهِ ووجه انظارهم الى عمران بلدهم وما يحتاجهُ من مساعداتهم وما توجبهُ الوطنية عليهم من السعي والعمل في هذا السبيل واوعز اليهم ان ينتخبوا ثمانية منهم لعضوية المجلس البلدي فانتخبوا اربعة من المسلمين واثنين من المسيحيين ومثلهم من اليهود وهكذا انشئ المجلس وجرت امور البلدية على احسن ما يرام . تجد الكنس والرش صباح مساء في الازقة والاسواق وفرش الآجر لا يزال دائباً في الشوارع وترى موظفي البلدية ساعين بكل نشاط وراء اعمالهم لا يفترون طرفة عين . ولم تمضِ بضعة ايام حتى انشأت الحكومة جسرين صغيرين على دجلة في غاية الاتقان خصصت احدهما للاهلين والآخر للجيش ريثما يتم الجسر الكبير الذي يوشر بانشائهِ ثم اوعزت الحكومة الى ناظر المالية ان يرتب امور الاوقاف وادارتها وان يباشر بتعيين الموظفين الى الولاية وملحقاتها فاطاع ودعا الرؤساء الروحانيين واشراف البلد واسند اليهم انتخاب مدير للاوقاف قادر على ادارتها غيور على تعميرها ففعلوا واسفر الانتخاب عن تعيين العلامة الزاهد الورع السيد محمد سعيد الزهاوي مفتي بغداد السابق . ثم باشر الناظر بتعيين موظفي المالية في نفس الولاية وخارجها ففتش عن الرجال القادرين واسند اليهم الوظائف واوصاهم بالمعروف مع الاهلين وحذرهم من الظلم والطيش في الاعمال فذهب كلٌّ الى عملهِ وهو ممتلئ غيرة ونشاطاً . وهكذا قل عن دائرة البوليس ومديرها الشيط وتخابر ابناء الاشراف واسنادهِ الوظائف المهمة اليهم واشرافهِ بنفسهِ على الاعمال وسهرهِ الدائم على كل ما يجري في بغداد من الامور سعياً وراء الامن وانراحة العمومية فاصبحت دار السلام في تلك المدة القصيرة وهي دار السلام حقيقة لا مجازاً بل اصبحت قرة عين الناظر ومسرح افكار الناظر والناثر بعد ما كانت وكنت واقفاً على دجلة أنشد فيها قبل ايام قليلة :

هلَّ نفسي عليكِ بغداد أصبحـ ـتِ وما في حماكِ الاَّ الخمولُ
فيكِ أضحى يا مهبط العلم للجهـ ـل مقرٌّ وللبلاء مقيلُ
ليت شعري بغداد تلك وهذي دجلة ذاك ماؤها السلسبيلُ
لم يضيّق فناءها ذلك الرحـ ـب ولم يعرِ رباعها التعطيلُ
فلماذا تغير القوم فيهـا وسرى في شعوبها التبديلُ

نعم ضرب الامن اطنابهُ في الزوراء في مدة وجيزة بفضل الساهرين عليهِ من أبناء بريطانيا الكرام ورجعت المياه الى مجاريها وفتحت الاسواق والمخازن وأظهرت دار السلام زينتها فكنت ترى حركة غريبة بعد ذلك السكون والجمود الطويل

أعمال كثيرة وارزاق وفيرة وسعي وحركة مدهشان في كل الاعمال لا نهب ولا سلب ولا قتل ولا ضرب بل حقوق مصانة وسعادة ونعيم . تجد الاهلين نساء ورجالاً شيباً وشباناً على اختلاف مللهم ونحلهم في الصباح والمساء يتطعون الشوارع ذهاباً وإياباً متجولين في ساحات وطنهم المحبوب فرحين مستبشرين كأنهم اخرجوا من السجن او كأنهم في يوم عيد بهيج . واي يوم ابهج او اسعد من يوم فيه أمن الخائف وفاز الآمل وحررت الرقاب وظهر الحق باجلى مظاهره وتحميه تلك القوة العظيمة قوة بريطانيا العادلة

ولا نبالي اذا ما كنت جارتنا ان لا يجاورنا إلاّكِ ديّارُ

وفي الايام الاولى من دخول البريطانيين نشر الجنرال مود القائد العام منشوراً أبان فيه رغبة بريطانيا وحلفائها في تحرير الامم المظلومة وانقاذها من ايدي الظلم والاستبداد ولاسيما الامة العربية ذات التاريخ المجيد وصرح لهم انهُ لم يدخل هذه البلاد الاّ بصفة محرر ومنقذ خدمة للانسانية وقياماً بواجب البشرية ودعا الاهلين الى ان يتكاتفوا مع الحكومة لادارة شؤونهم واوطانهم ووعدهم بكل خير ومنّاهم بكل فلاح . فقابل الاهلون منشور القائد العام بسرور عظيم وطفقت الوفود من رؤساء العرب وأشرافها تفد تباعاً على السر برسي كوكس الحاكم السياسي العام يهنئونهُ بالنصر ويعرضون عليهِ الطاعة ويقدمون لهُ آيات الشكر والثناء على ما قام بهِ الجيش البريطاني من الواجب في انقاذ البلاد والعباد من مخالب الظالمين فيقابلهم حضرتهُ بما جبل عليهِ من مكارم الاخلاق باللطف واللين والتبجيل والتكريم ليخرجون وكلهم ألسنة تنضح بالثناء على حضرتهِ والدعاء بتأييد حكومة بريطانيا محررة الامم والشعوب

كتبت هذه الاسطر وانا متجوّل في عشائر زبيد وقد قابلت جل رؤسائهم كما قابلت كثيراً غيرهم من الرؤساء فوجدتهم جميعاً في اعظم ما يكون من السرور يطفون آمالاً كباراً على حكومتهم الجديدة في اصلاح شؤونهم ويشكرونها شكراً جزيلاً على اهتمامها بامر العرب ولاسيما بامر جلالة الملك العربي الحسين بن علي وهم متشوقون لاخبار الحجاز وما يتعلق بهِ من الشؤون والاحوال كما انهم يتمنون في العاجل القريب تطهير الموصل وسوريا من ارجاس هولاكو وتيمور وانقاذ اخوانهم الباقين في تلك الاصقاع من مخالب أبناء جنكيز وما ذلك على حكومة بريطانيا بعزيز

جزيرة بغداد — السيد خيري الهنداوي